في مفاهيمية "الفضاء العمومي" من المنظورين الغربي والعربي الإسلامي.

د. فلـة بن غربية

قسم الإعلام والاتصال –
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية –
جامعة وهران

المفاهيم المفتاحية: الفضاء العمومي، المفهوم، النظم الاتصالية والسياسية والفكرية، المفكرة السوسيولوجية والانتربولوجية، المنظومة الاتصالية، المجتمع الغربي، المجتمع العربي الإسلامي ، حركية المجتمع، القيمة.

إن تناول المفاهيم، في ميدان البحث العلمي، بالدراسة يعتبر من القواعد المنهجية الأساسية في تحديد نوعية وأهداف ومسار إشكالية بحث مختارة في العلوم الاجتماعية. بحيث تستعمل وتحلل وأيضا تؤول هذه المفاهيم حسب ما يتطلبه ويقتضيه موضوع الدراسة والبيئة المجتمعية التي تشكل ميدانا نظريا وإمبريقيا لها.

لهذا تحاول هذه الأوراق البحثية أن تركز على إشكالية مفاهيمية المفاهيمLa conceptualisation des concepts التي تعتبر مفتاحا من المفاتيح المنهجية التي يهتم بها الباحث إذ يأخذ بعين الاعتبار خصوصياتها ومرجعياتها وكذا منطلقاتها ومنشئيتها، ولكن بطريقة الاهتمام بالمعنى الدلالي والإستعمالي وكذا الاصطلاحي لها.

يهدف هذا البحث إلى النظر بعين تأويلية لمفهوم الفضاء العمومي على مستوى معانيه ودلالاته اللغوية والاصطلاحية والابستيمولوجية من خلال التطرق إلى انتربولوجية استعمالاته من المنظور الغربي كمنظومة لغوية اتصالية منتجة لهذا المصطلح ولمفهومه.

إن الحديث عن مفاهيمية المفاهيم ذات الاستعمالات الأكاديمية البحثية من جانبها النظري أو الإمبريقي، يقودنا إلى محاولة استنطاقها على مستوى دلالاتها اللغوية والضمنية، المعنوية أو المادية. وذلك حسب طبيعة الظاهرة المدروسة من حيث سياقها المكاني والزماني، وكذا مرجعية الفاعلين، المؤثرين والمؤطرين لهذه الظاهرة. لأن المفهوم في رأينا، كيان حيوي، بنيوي، يعبر عن الظواهر التي ابتدعها الفرد ضمن حركية سيرورة مجتمعه الدائمة في التغير والتطور.

فالمفاهيم بإيقاعاتها ومعانيها وترجماتها اللغوية، السيميائية والإبستيمولوجية المعقدة والمختلفة (وهذا ما يزيدها قيمة للنقاش والجدال بين المفكرين الباحثين) تشكل في حد ذاتها منظومة فكرية معرفية، تنقل لنا الخصائص السوسيولوجية النسقية الدلالية للواقع المعاش، لأننا نلاحظ أن المفهوم ينشأ وينمو وينضج من خلال منظومة تصورات دالة إلى معاني ورموز محددة، مرتبطة بالمجال النظري والسياق النصي واللغوي والاستعمالي لأي مجتمع (إذ يمثل المفهوم العملة ذات الوجهين المختلفين والمتكاملين والمرتبطين لتأدية دور معين)...يستعمل هذا المفهوم من أجل التواصل والإتصال، من أجل الحوار الفلسفي الإجتماعي ومن أجل بناء نسق فكري مرجعي.

لذلك ومن أجل هذا وذاك، فتحديد المفاهيم لغويا ودلاليا نظريا واستعماليا وممارستيا، يعد من أهم الخطوات المنهجية العلمية التي تصف لنا البيئة المدروسة.

إذن: تتجه هذه الأوراق البحثية إلى تناول إشكالية مفهوم لا طالما شغل تفكير الباحثين في جميع مجالات العلوم الإنسانية، لتشعب أدواره ووظائفه وأهمية وقيمة القيم المادية والمعنوية التي يحتويها أو يقوم بها ضمن نظم مؤسساستية قائمة على الآليات والمؤسسات التي يتجلى من خلالها هذا المفهوم والمتمثل في مفهوم: الفضاء العمومي الذي وجدناه محور دراسات تناولت فكر النظم الإتصالية، الاجتماعية والسياسية وما أنتجته من علاقات وتفاعلات في تحديد مسار

المجتمعات، لأنه ومن خلال الوظائف التي يبرز فيها ومن أجلها وبداخلها يحاول توضيح ديناميكية حركية المجتمعات.

إن هذا المفهوم (الفضاء العمومي) l'espace Public مفهوم منتج من قبل رحم المنظومة الإتصالية الغربية التي هيكلته لغويا، سيميائيا ، استعماليا وتنظيريا. وظف وفق المعايير المؤسساتية التي أدت إلى انتقال المجتمع الغربي من وضعية بنيوية إلى وضعية بنيوية أخرى، فنحاول أن نتعرف على الاستعمالات المفاهمية والدلالية له من خلال هذا المنظور ثم تنعرج إلى تناول بعض دلالاته ومعانيه من المنظور المعرفي الفكري للمجتمع العربي الإسلامي من خلال تحديدنا لبعض المحطات الأنثروبولوجية، السوسيولوجية البنوية لهذا المجتمع.

ولكن قبل هذا يوجب علينا التعرف على هذا المفهوم، الذي يعتبر في رأينا رمزي لغوي يمكن من تأسيس بنى اتصالية أو تفكيكها ليعطي لنا صورة عن تطور النظم المجتمعية المختلفة.

في ماهية الفضاء العمومي:

عندما نتأمل في المفهوم، نجده يتكون من كلمتين مختلفتين متكاملتين بشكل تفصلي، مؤدية إلى معنى إجرائي ومعياري حسب الاستعمالات الوظيفية.

أ- الفضاء ، ب- العمومي

"الفضاء" كلمة تحمل معاني ومرادفات عديدة تعطيها وظيفة واستعمال حسب السياق. فقد نقصد بالفضاء الخارجي، أي خارج الكرة الأرضية. أو نقصد به المكان: كأن نقول هذا فضاء لممارسة الرياضة أي مكان ممارسة الرياضة.

أو يعني المجال: كأن نقول مجال مفتوح للطلبة.

يقابل الكلمة باللغة الفرنسة Espace التي يقصد بها La Place أو L'endroit أو يقصد بها البعد la Distance كأن تقول Il ya le même

espace entre chaque point أو يقصد بها الزمان en espace de quelques minutes أو ظرف مكان un espace vert أما كلمة "عمومي" : فهي مشتقة من كلمة عام، أي الشيء المشترك وهي عكس كلمة "خاص" أو " شخصي " أو " فردي ".

تقابلها بالفرنسية كلمةPublic التي قد تعني le général-le commun كأن تقول: une institution à service public أو يقصد بها الجمهور كأن تقول: l'exposition est ouverte au public أو تعني التشهير بأمر معين: كأن تقول le président a pris la parole en public

وبذلك الكلمة المركبة من الفضاء العمومي (الفضاء العمومي) offentlichkeit- espace public والتي يقصد بها ذلك الحيز أو المكان أو المجال المادي والمعنوي المفتوح للجميع، أي للأفراد الذين ينشؤون ويستعملون هذا الفضاء. فيوظفون من أجل الاستفادة المشتركة إذ يتخذون ضمن هذا الفضاء سلوكات معينة حسب الوضعية التي يتواجدون فيها (أي حسب طبيعة الفضاء واستعمالاته). يتفاعلون ويتبادلون الآراء والمواقف والاتجاهات، فينتجون بذلك فضاء حيوي ذا منفعة مشتركة، يستعملونه لبلوغ أهداف وغايات معينة.

1- مفاهمية واستعمالية مفهوم الفضاء العمومي من المنظور الغربي:

إن مفهوم الفضاء العمومي، معطى لغوي رمزي دال عن واقع منتج من طرف نظم اتصالية-سياسية- اجتماعية إذ يقول عنه Louis quère أنه "فضاء رمزيSymbolique أين يسمح للأفراد بالتموقع والتموضع داخل المجتمع واتجاهه.

فالمفهوم يحمل فكريتن: **الأولى** أنه مجال عمومي للتعبير الحر، ينظر إليه كفضاء للاتصال. **والثانية**:أن الأفراد بداخله يبرزون أرائهم خلال النقاش العلني بحيث يلجئون إلى استعمال دلالات عقلانية في محاولة إيجاد حلول للمسائل

العامة"[1] لذلك قد يكون ماديا مثل جهاز أو مؤسسة أو قد يكون معنويا مثل قيمة. فهو ليس حيزا ماديا أو مكانيا أو جغرافيا فقط بل يتضمن قيما ومعايير مختلفة. فمثلا: المدرسة، والكنيسة، المسجد، البرلمان- الأحزاب- الجمعيات، النقابات، وسائل الإعلام والمقاهي والصالونات الأدبية والفكرية والجامعات، والمجاس الشعبية ومؤسسات الدولة... كلها فضاءات عمومية مختلفة، تقوم بدور تنظيم وتسيير الشؤون العامة للناس. لهذا يقول **Dominique Wolton** إنه "مجموع المسارح والساحات كمؤسسات أين تتبلور وتوضح وتقرر فيها مجموعة من الأفعال الموجهة سياسيا والتي تطرح فيها المشاركة الجماعية وأين تلتقي أشكال الفضاء السياشي والاجتماعي"[2]

ومنه نلاحظ أن كلمة الفضاء العمومي لغويا، استعملت للتعبير عن كل متغير أو آلية أو جهاز أو قيمة يتبادل ضمنها، من أجلها وحولها تنظيم وتسيير حياتهم العامة ومنه تنظيم وتسيير مجتمعهم.

فالأصل الدلالي - الاستعمالي للكلمة، أنها قد استعملت بمفردات مغايرة مؤدية إلى نفس المعنى الاستعمالي في العهد اليوناني[3] أين كان اليونان يمارسون حياتهم اليومية في الساحة العمومية التي كانت تسمى بساحة السوق **L'agora**[4] يتحاورون ويتبادلون الآراء والتفاعلات بحيث يتميز هؤلاء بأنهم أحرار يملكون المال، الثقافة، العبيد، المنازل الفخمة ووسائل الإنتاج المادي والفكري، بالإضافة إلى تمتعهم بكل الحقوق المدنية والقانونية، ويكونون بذلك وسطا عموميا يسمى بـ**la sphère de la polis**[5] ويقابلها من جهة أخرى **La sphère de l'oîkos**[6] التي تشير إلى الفقراء من الناس، الذين ليس لديهم الحق في المشاركة في **la polis** كلمة تعني الشيء المشترك بين جميع الأفراد الأحرار.

ثم ظهرت هذه الدلالات الاستعمالية مرة ثانية في العهد الإقطاعي، بشكل وبمعنى آخر، أين مثل الأمير **Le seigneur** أو **le prince** الفضاء العمومي باعتباره الحاكم والمقرر والمالك لكل ما تحتويه مقاطعته، إذ قال هابرماس

أن " كلمة seigneur الأمير مرادفة لكلمة publicusأو publicar والتي تعني العمومي"[7]

انتقلت الكلمة واستعمالاتها إلى مجالات أكثر استغلالا من طرف معظم أفراد المجتمع نتيجة التغييرات الجذرية التي عرفها المجتمع الغربي الحديث ابتداءا من القرن 18 سواء على مستوى العلاقات بين الطبقة السياسية والطبقة البورجوازية سواءا على مستوى العلاقات بين الفئات المكونة له، سواء على مستوى الانتاج المادي أو المعرفي. إذ يرى هابرماس أن مفاهمية مفهوم الفضاء العمومي"تطورت بأشكال سوسيولوجية تاريخية، تعطيه من الأهمية في تكوين تاريخ الأفكار الاجتماعية Histoires des idées sociales التي تقدم لنا نموذجا إيديولوجيا معينا"[8] مبنيا على ما أحدثه المجتمع على مستوى العلاقات المختلفة المذكورة سابقا.

إذ نلاحظ أن الطبقة البورجوازية[9] لعبت دورا حاسما في بناء المجتمع الغربي الحديث بإرساء القواعد العلاقتية بين أفراده ومؤسساته التي استحدثتها، أو بدأت تظهر بذور استحداثها، حتى اعتبرت فضاء عموميا محركا ومسيرا لهذا المجتمع، كونها الفئة المالكة لوسائل الإنتاج المادي والمعنوي، والتي أدت إلى تحول المجتمع الغربي من إقطاعي إلى رأسمالي. فبرزت فكرة استعمال مفهوم الفضاء العمومي من ومؤسساته من خلال ما قامت وطلبت به الطبقة البورجوازية المتمثلة في:

- نشر الوعي السياسي والمتمثل في المطالبة بالحقوق السياسية كالمشاركة في الانتخابات والمساواة بين المرأة والرجل في التمثيل البرلماني ومناقشة قرارات السلطة السياسية بطريقة علانية.

- تكوين رأي عام مدرك لأفعاله وسلوكاته اتجاه القضايا المطروحة على الساحة السياسية.

-المطالبة بتحقيق المصلحة والمنفعة العامة بتوجيه مؤسسات الفضاء العمومي إلى خدمة جميع الفئات الاجتماعية كونها فئات مشاركة في بناء الهيكل التنظيمي العام لهذا المجتمع.

- "مخاطبة الدولة بأن تكون مسؤولية أمام الجميع بتوضيح وطرح نشاطاتها وأعمالها بطريقة علنية إلى جميع أفراد المجتمع حتى يستطعون التعرف على هذه النشاطات، مناقشاتها، تحليلها ونقدها"[9]

لهذا تمثل الفضاء العمومي البورجوازي في مجموع الأفراد الذين يجتمعون من أجل مناقشة مواضيع وأمور ذات الطابع العام والمشترك[10]

لقد برزت مفاهمية واستعمالية كلمة الفضاء العمومي في المنظور الغربي ابتداء من القرن **الثامن عشر** في مجالات متعددة ومختلفة، أبرزها المجال السياسي- القانوني- والاتصالي (الإعلامي) للتعبير عن العلاقات والتفاعلات بين الحاكم والمحكومين.

- بحيث تجلت أهمية تداولاته في الميدان السياسي، البحث في التحولات السياسية على مستوى النظم السياسية الغربية خاصة عند ظهور مفاهيم الديمقراطية- المشاركة السياسية- الإرادة العامة السياسية[11] - حرية الرأي والتعبير- السيادة الشعبية- الشرعية السياسية والقانونية والمناداة بحرية الرأي العلني في التحاور والإتصال مع السلطة السياسية، ومن ثم حرية مناقشة ونقد القرارات السياسية الموجهة للصالح العام- حرية تكوين الأحزاب السياسة والجمعيات، والاجتماعات والتجمعات- حرية الإعلام، حرية المعارضة، حرية الإضرابات والمسيرات، وحرية التأهيل للانتخابات...آليات تظهر وتجلى من خلالها الفضاء العمومي للدور اللغوي والإبستمولوجي الذي يعبر به عن هذه المفاهيم واندماجها في تسيير الشأن العام.

لقد منحت التغيرات أو الظواهر المذكورة أعلاه أهمية قاعدية قيمية لاستعمالات مفهوم الفضاء العمومي، حتى أضحى معطى **un postulat** جوهريا في تحديد مسار النظم السياسة بالمشاركة العامة لكل أفراد المجتمع لأنهم ومن خلال المطالب المحققة، ومن خلال الإبداع والإنتاج المؤسساتي استطاعوا أن يوظفوا هذا المفهوم توظيفا يتماشى وما أفرزته مجتمعاتهم إذ أطلق عليها اسم الفضاء العمومي السياسي. **L'espace public politique** وتجلت أهمية

وضرورية استعمالاته في الميدان القانوني (في نفس الوقت) من خلال القوانين المدنية والتشريعات الدستورية التي صاغت وشرحت العلاقات بين جميع أطراف أفراد المجتمع.

أما في الميدان الاتصالي فارتبط استعمال المفهوم بظهور الوسيلة الإعلامية، إذ تعتبر هذه الأخيرة وباختلاف أنواعها من منتوجات المجتمع الغربي شكلا ومضمونا. فتبلور من خلال الوسيلة الإعلامية مفهوم الفضاء العمومي الاتصالي أو مفهوم الفضاء العمومي الإعلامي، الذي اقترن بالوظائف العديدة المتعددة التي تقوم بها وسائل الإعلام الجماهيرية، ومن بينها تكوين أو التأثير على الرأي العام خاصة بنمو هذه الوسائل تكنولوجيا واستراتيجيا.

وكلما أنتج المجتمع الغربي ميكنيزمات بنائية تحويلية ومؤسسات جديدة، إلا ووجدت أشكال وتوظيفات وتدخلات الفضاء العمومي، مما أضفى عليه أهمية كبيرة جدا في الأبحاث الأكاديمية الغربية خاصة منها في الميدان السياسي والميدان الاتصالي، إذ نجد وعلى سبيل المثال دراسات:

-Bernard Miège/ la société conquise par la communication

Tome 1 : la communication entre industrie et l'espace public

Tome 2 : l'espace public revisité Grenoble, éd presse universitaire de Grenoble 1997.

- Isabelle paillart/ l'espace public et l'entreprise de communication, Grenoble, éd. Elug1995 .

- Louis Quéré/ Agir dans l'espace public, les formes de l'action, paris, ed de l'EHESS, 1990.

2- مفاهمية واستعمالية مفهوم الفضاء العمومي من المنظور العربي الإسلامي.

بطبيعة الحال نرى أن المنظور الفكري والسياقي والسنوي للمجتمع العربي الإسلامي يختلف اختلافا جوهريا عن المنظور الفكري والإنتاج المعرفي

للمجتمع العربي لاختلاف المرجعيات التأسيسية, لاختلاف البنى الاجتماعية, ولاختلاف نوعية و طريقة العلاقات بين المؤسسات والفاعلين في كلتيهما والذين لعبوا دورا حاسما في تحديد نوعية المفاهيم المستعملة والتي توصف وتعبر عن ما يحدث من التفاعلات , تحولات وتغيرات في الهيكل العام للمجتمعات .

إن مفهوم الفضاء العمومي لم يظهر كمصطلح comme usage terminologique [12] في المفكرة السيوسيولوجية الانثروبيولجية للمجتمع العربي الإسلامي بشكل ملفوظ ومكتوب – عكس ماوجد في المفكرة السيوسيولوجية الانثروبيولوجية للمجتمع الغربي – تنظيرا واستعمالا لغويا، لأنه متواجد، نشط، فعال، قائم بادوار ومهمات مختلفة، يتطور ويتحول ويتبلور في ومن خلال أشكال وأنماط وسلوكات، تماشيا وحركية وانتقالية المجتمع العربي الإسلامي، من وضعيات إتصالية/ سياسة / اجتماعية/ دينية/ قيمية..... إلى وضعيات أخرى. فمورس واستعمل ووظف حسب طبيعة ونوعية درجة الوعي الجماعي لعملية تنظيم وتسيير هذا المجتمع. فكلما تغير أو تطور المجتمع العربي الإسلامي بطريقة مفصلية أو لا مفصلية إلا وتغيرت وتطورت أشكال تمظهرات الفضاء العمومي.

وللملاحظة: فإن مفاهمية الفضاء العمومي في هذا المجتمع ارتبطت بدورها وبصفة قوية بنوعية وكيفية بناء العملية الاتصالية بين الحاكم والمحكومين، من خلال المؤسسات المختلفة، الممثلة والحاملة والمروجة لمضمون ودلالات ومعاني المفهوم.

اتجاهنا في هذا الطرح إلى تناول الأشكال والمعاني والدلالات التي اتخذها المفهوم في المجتمع العربي الإسلامي, من خلال تطرقنا إلى مراحل تطوره(مأخوذة عن قصد) وتغيره على مستوى البنى المؤسساتية، والتي أدت إلى تغير وتحديد نوعية السلوكات، والمواقف والقرارات والعلاقات بين مكونات هذا المجتمع. كل هذا من اجل تبيان انثروبيولوجية مفاهيمية مفهوم الفضاء العمومي، التي انبثقت من التكوين والطبيعة السوسيولوجية لهذا المجتمع.

بهذا نذهب إلى تناوله ابتداءا من مرحلة ما قبل الإسلام التي تعتبر مرجعية معرفية في مفاهمية وتشكل المفهوم للمراحل اللاحقة، لأن كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع العربي الإسلامي كانت سببا أو مؤثرا في انبثاق المرحلة الأخرى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، عفوية أو قصدية. لقد المجتمع العربي قبل الإسلام يتمتع بعدة فضاءات عمومية في انسجامية هدفهما تنظيم مجتمع مكة الذي كان يتميز بتقسيم وتنظيم السلطات بين أهلها.

ومن بين أهم وأبرز الفضاءات العمومية في هذا المجتمع :

- **الفضاء العمومي الديني**: والمجسد في الكعبة وما يحيطها من أصنام وطقوس دينية, تمثل القيمة المعنوية والروحية لأهل مكة، لما كان للدين الممارس في ذلك الزمان من هيمنة على معتقدات عقول وشعور الأفراد، لأنه دين الأجداد راسخ في أعماق العقل العربي الذي يتصل ويتعامل مع الآخر وفق الكيفية المجسدة لدينهم.

كما مثلت الكعبة الفضاء العمومي الديني بالرغم من أنها فضاء عمومي مكاني، لأنها محور بداية تنظيم جميع شؤون مكة، لكونها مكان مقدس، يحج إليه العرب من كل مكان. ولكونها مصدر رزقهم ومعاشهم، لارتباطها بالتجارة والرحلات التجارية. فهي مكان التقاء القوافل المارة عليها والمتجهة إلى بلاد الشام والهند والصين. بسم الله الرحمن الرحيم "لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف "[131]

حتى أصبحت مكة مركزا تجاريا مفتوحا على الجميع، فيه تتم المبادلات والصفقات التجارية بين القوافل العابرة وأهل مكة الذين كانوا يمتهنون التجارة كنشاط أساسي لهم.

- **الفضاء العمومي السياسي**: لقد استطاعت مؤسسات الفضاء العمومي السياسي الموضحة له والمتمثلة في الآليات التي سوف نذكرها لاحقا أن تنسج

نسقا سياسيا متفق عليه من طرف المشتركين فيه وفق نظام مشترك من القيم والرموز التي تبنى عليها العملة الاتصالية للسياسة بين أفراد هذا المجتمع. ويأتي على هرمها شيخ القبيلة ثم أعضاء "الحكومة" المؤلفة من سادة مكة، إذ يلجأ إليها للفصل في المنازعات والاختلافات التي تحدث بين الناس في الحياة العامة لهم فيمارسون أسلوب الشورى، ويتولون السقاية والرفادة والسدانة[14] كما برز شكل الفضاء العمومي في هذا العهد من خلال الملأ المكي[15] ودار الندوة، وحلف الفصول كمؤسسات تنظيمية للحياة السياسية.

- **الفضاء العمومي التجاري**: والذي كانت مكة تقدسه، كونه مكسب رزق وانتعاش اقتصادي لها. لذلك عرفت بسوق عكاظ كأكبر سوق تجارية يقصدها التجار من كل أنحاء الجزيرة العربية وما جاورها.

- **الفضاء العمومي الأدبي**: ازدهرت مكة بشعرائها وشعرها، إذ استطاع الشعر الجاهلي أن يعكس البيئة الاجتماعية والعامة لمكة حتى أصبحت قبلة للشعراء والقصاصين والنحويين والرواة، يتبادلون الإبداع الفني والأدبي والمعبرعن الحالة الاجتماعية للمجتمع العربي قبل الإسلام.

...آليات مختلفة أدت إلى إظهار وتمظهر معنى الفضاء العمومي حسب البيئة التي انبثق منها....

هذه الآليات عرفت تغييرات جذرية بمجيء الإسلام الذي أرسى قواعد وأشكال جديدة للفضاء العمومي، بتجديد العهد والتنظيمات شكلا ومحتوى، وباستبدال قيم الفضاء العمومي التي كانت مسيطرة في المرحلة ما قبل الإسلام والمتمثلة في العصبية، بقيم دينية مأخوذة من الكتاب وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام.

لقد تمثلت أهم تجيات الفضاء العمومي في المرحلة المحمدية في التنزيل كأهم فضاء عمومي مرجعي قاعدي عقائدي، في تحديد وتسهيل وتوضيح العلاقات بين جميع أفراد المجتمع، والكيفية التي ينظمون بها حياتهم العامة سواء في العبادات أو المعاملات.

وانطلاقا من هذا الفضاء العمومي الشامل ولكل صغيرة أو كبيرة موجهة للإنسان من رب العالمين، انبثقت جميع الفضاءات العمومية الأخرى المصوغة والمأخوذة منه. لأنه فضاء عمومي محكم، منزل ناقشا وطارحا قضايا المخلوقات في علاقاتها مع الله وعلاقتها فيما بينها.

إن مفاهمية استعمالية مغزى ومضمون الفضاء العمومي تمثلت وازدهرت في بداية بناء المدينة **la cité** التي أرسى قواعدها الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة المنورة بحيث كانت هجرة الرسول (ص) إلى المدينة المنورة نقطية بداية تبلور فكرة الدولة الإسلامية، لأنه عكف على تنظيم الحياة العامة للناس من جميع جوانبها:

- **الدينية:** الاعتصام بتعاليم الدين الإسلامي وإتباع خطوات الرسول الكريم.

- **الأخلاقية:** نشر مبادئ الدين الإسلامي المبنية على المساواة والتآخي والعدل والتراضي والتضامن والتكافل الاجتماعي.

- **السياسية:** إدخال فكرة تنظيم الحكم السياسي، أساسه الحكم الشوري المستوحى من الشريعة الإسلامية والذي يمنح الشرعية السياسية والقانونية للنظام السياسي الإسلامي. يهدف هذا التنظيم السياسي الإسلامي الجديد إلى إقامة العدل ورعاية شؤون الأمة.

- **الاقتصادية:** تنظيم اقتصادي، يعتمد على الزكاة وعلى المبادلات التجارية الخالية من الربا والرشوة...

- **العسكرية:** إذ عمد الرسول(ص) على تكوين الجيش بقيادته لعزيز مكانة "الدولة الإسلامية" والقيام بالفتوحات الإسلامية....

كل هذا من أجل بناء منظومة انتقالية/ سياسية/ اجتماعية/ دينية، ذات قواعد وأسس متينة القيم وتفاهمية التحاور والتواصل، استراتيجية في أهدافها

وحركيتها.... ولكن وبعد وفاة الرسول(ص) عرفت المنظومة الاتصالية تغيرات على مستوى الفضاء العمومي السياسي، الذي أخذ شكلا جديدا، بتجديد وتغيير الوضعية السياسية، ألا وهي فراغ منصب الحاكم، فاتصالية وتبادلية الآراء والتوجهات بين المسلمين، أدى بهم إلى استحداث قيمة جديدة في الفضاء العمومي السياسي المبني على التشريعات الدينية. تكونت هذه الفكرة من خلال عملية التشاور الهادفة إلى تحقيق المصلحة العامة وهي الخلافة وتعني حسب الماوردي "نيابة عن صاحب الشرع(النبي) في حفظ الدين وسياسة الدنيا"[16] ويعرفها ابن خلدون على أنها" حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به"[17].

فهذه الفكرة أو النظام الخليفي اعتبر بمثابة المحرك الأساسي لقاطرة النظام السياسي الجديد خاصة في نوعية العلاقات بين الحاكم والمحكوم والتي تجلت بدرجة واضحة في ميكانزم البيعة، الطريقة الشرعية العلنية التي يتم بها تنصيب الخليفة بهذه الآليات المذكورة، تبلور مفهوم الفضاء العمومي كمعنى وكأسلوب وكقيمة ممارسة من طرف الأفراد في المجتمع العرفي الإسلامي.

لقد عرف هذا المفهوم انعطافا إمبريقيا ونظريا من خلال ما آل إليه المجتمع العربي الإسلامي في مرحلة الضعف التي برزت فيها ظاهرة السلطان كفكر وخطاب سياسي سيطر على جميع آليات المجتمع. إذ وبالتحديد في هذه المرحلة بدأ العديد من المفكرين تحليل وضعيات وأوضاع المجتمع، مستعملين كلمات ومرادفات وتحليلات، تقدم نفس المعنى الأصلي لكلمة الفضاء العمومي، سجلت في الإبداع الفكري الفلسفي والسوسيولوجي العربي الإسلامي.

فهذا ابن خلدون، ينقل لنا بطريقة وصفية تأويلية سيرورة حركية المجتمع العربي الإسلامي خاصة الفترة التي عايشها أي القرن 8 هـ - ال14م في كتابه

المشهور في التراث المعرفي " المقدمة "، إذ قدم لنا الصور والأشكال التي تبلور من خلالها مفهوم الفضاء العمومي، مستعملا مصطلحات العمران البشري أو بالتدقيق في العمران البشري، متحدثا عن الجوانب والأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي ميزت سيرورة هذا المجتمع، لإبراز نوعية العلاقات بين الأفراد من خلال تسليط الضوء على بعض المفاهيم المفتاحية والظواهر البنيوية ابتداء من العمران البدوي إلى العمران الحضري وسياسة الملك والسلطان والدولة العربية الإسلامية بالتركيز على دور المدينة في الإنتاج العمراني المادي والمعرفي المعنوي .

وذاك ابن رشيد الذي تناول ظاهرة الفضاء العمومي كمعنى، وليس كمصطلح، من خلال كتابة مختصر كتاب السياسة لأفلاطون[18] نقل لنا هذا الأخير واقع النظم السياسية في مرحلة انحطاط الدولة العربية الإسلامية، ممارسا نقدا صريحا وجريئا للحكم السياسي في عصره، مسلحا بالعلم والحكمة والفلسفة، ومنددا بجميع أشكال التسلط والاستبداد، مؤمنا بالتقدم والإصلاح السياسي ومستعملا كلمات ومصطلحات سياسة الملك – وحدانية التسلط ـ إدارة شؤون الناس... وغيرها من المفردات التي تعبر تعبيرا صريحا عن ماهية الفضاء العمومي إذ يقول: " فالسياسة هي تدبير المدينة، والمقصود بالمدينة ليس أرضها ولا مساحتها ولا منازلها ومبانيها، بل المقصود هم أهلها. ولكن لا من جهة أنهم أجسام، بل من جهة لهم نفوس تسعى إلى الحصول على كمالاتها في عيشها المشترك: السياسية هي تدبير النفوس الجماعة " [19]

ثم نجد كلا من الماوردي في كتابه: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، والمودودي في كتابه: النظرية الإسلامية وهدية في السياسة والقانون و الدستور، وابن قتيبة الدينوري في كتابه: الإمامة والسياسة والطبري : تاريخ الرسل والملوك ... هؤلاء وغيرهم، تناولوا أشكال مؤسسات الفضاء العمومي من

خلال نقلهم ووصفهم ونقدهم والإدلاء بأرائهم ومواقفهم في الكيفية التي تداربها الشؤون العامة للأفراد في المجتمع العربي الإسلامي.

تجددت مظاهر تجليات مفهوم الفضاء العمومي بتجديد الآليات والمتغيرات التي أدت بالمجتمع العربي الإسلامي إلى أن ينتقل من مرحلة الضعف إلى النهضة، " مستوردا " مفاهيم عديدة من الغرب لاحتكاكه به عن طريق الانفتاح نحو الآخر مثل البعثات العلمية أو الدبلوماسية أو عن طريق الاستعمار الذي قدم إلى البلدان العربية الإسلامية بسياسته وفلسفة وخطابه "الإصلاحي" على جميع مستويات الحياة العامة.

فتزاوجت في بعض الأوضاع مبادئ ومظاهرا لفضاء العمومي العربي الإسلامي مع الفضاء العمومي الغربي, وتنافرت في أوضاع أخرى خاصة على مستوى السياسي والدستوري القانوني والعسكري، إذ ظهر على مستوى الإنتاج الفكري عدة مفكرين حاولوا تشخيص الفضاء العمومي في هذه المرحلة، ومن بينهم جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، محمد إقبال، فرح أنطوان في مصر، ابن باديس و الشيخ الإبراهيمي في الجزائر، ابن عاشور التونسي بتونس مستعملين وسائل الإعلام (صحف) لترويج أفكارهم المتناولة لبنية الفضاء العمومي في مجتمعهم، وتحليلهم ونقدهم للنظم الحاكمية[20] في كيفية تعاملاتها مع الأفراد، بالتركيز على مفاهيم المواطنة، حرية الرأي والتعبير، الحقوق المدنية، المساواة، الديمقراطية، التنمية، التغير الاجتماعي، القومية والقومية العربية، العروبة، التمدن، الإصلاحات، العدالة الاجتماعية.

... مفاهيم مثلت مفاهيمية الفضاء العمومي على مستوى الاستعمالي الممارسي في هذه النظم، والتي تناولها وحللها باحثون عرب آخرون، عكفوا على توضيح الميكانيزمات والكيفيات التي تعمل بها النظم السياسية العربية الإسلامية مثل الدكتور محمد عابد الجابري/ إشكاليات الفكر العربي المعاصر، أو دراسته حول إشكاليات العقل العربي من خلال تناوله لمفاهيم الحداثة، القومية العربية

الإقليمية، الهوية العربية. أو دراسات جرجي زيدان، برهان غليون، مختاري التهامي وغيرهم الذين أثروا السجل الفكري بإبداعاتهم في وصف الطبيعة البنوية للمجتمع العربي الإسلامي.

حاولنا في هذه الأوراق المتواضعة أن نقدم صورة ذهنية حول معاني ودلالات مفاهمية الفضاء العمومي في المجتمع العربي الإسلامي سواء على مستوى الممارسة للمفهوم كمعطى قيمي ومادي، يسبح في جميع أعضاء الهيكل التنظيمي للمجتمع، أو على مستوى الإبداع الفكري.

إلا أنه يجب أن نذكر أن هذا المفهوم **كمصطلح Usage terminologique** لم يتواجد في التراث العربي الإسلامي، وانتبه لهذا المصطلح في السنوات القليلة الماضية لتغير وتعقد العلاقات المختلفة بين فئات المجتمع على جميع المستويات. وبالرغم من هذا الانتباه، بقي المفهوم قليل الاستعمالات في الأدبيات الحديثة – و هذه الإشكالية أخرى ـ فيقول نصرالدين العياضي في إحدى مداخلاته ضمن فعليات الملتقى الدولي الموسوم بـ إشكالية حضارة المجتمع الإعلامي بالجزائر بجامعة وهران كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم علوم الإعلام و الاتصال بتاريخ 14–15 مارس 2005 : " نعتقد أن الحديث عن الفضاء العمومي في العالم العربي والجزائر، يشكل مغامرة حقيقة لأنه يوجد من يعارض استخدام هذا المفهوم في المجتمعات العربية، هذا الاعتراض نابع من نزعة أساسية تتمثل في الوقوف ضد كل محاولة توظيف مفاهيم غريبة عن البيئة العربية الإسلامية لتوضيح ظواهر اجتماعية و إعلامية وسياسية وغيرها ".

لذلك، ومن أجل كل ما تقدم من معطيات حول هذا المفهوم، ولاهتمامنا الشخصي الأكاديمي به أنجزنا أطروحة دكتورا نوقشت في مطلع سنة 2010 بعنوان: " سيرورة المنظومة الاتصالية والفضاء العمومي: دراسة مقاربتية لآليات التشكل في المجتمعين الغربي والعربي الإسلامي " والتي توصلت إلى أن: مفهوم الفضاء العمومي كمصطلح لغوي وممارساتي، استعمل بصفة صريحة ملفوظة

لغويا خاصة في الميدان السياسي، الاتصالي والقانوني في المنظومة الغربية المنتجة له، وللمؤسسات التي تنتهجه وتشكله وتهيكله.

لقد أضحى محور اهتمام الأدبيات الفكرية، اللسانية منها والسيميائية، الاتصالية والبنيوية التي ذهبت إلى تفكيكه تفكيكا علميا أكاديميا لكي يقدم لنا صورة عن سيرورة حركية المجتمع الغربي . لذلك اعتبر مشروع مجتمع.

أما في المنظومة العربية الإسلامية، فلم نجده لغويا مصطلحا ملفوظا بصفة صريحة وواضحة، بل استعملت مفاهيم ومعاني ومصطلحات أخرى في العديد من الأدبيات الفكرية العربية الإسلامية (لقد ذكرنا أمثلة عن ذلك في هذه الدراسة) التي تناولت فكرة مفاهيمية مفهوم الفضاء العمومي لكي تصف وتشرح وتحلل حركية سيرورة المجتمع العربي الإسلامي على جميع مستويات الحياة العامة.

فهو بهذا مفهوم ميكانيزمي متحرك قاعدي، مرجعي، معياري يستعمل لفهم أو محاولة فهم الكيفية الاتصالية/ اللغوية/ البنيوية التي يتحرك ويسير وفقها ومن خلالها وبواسطتها المجتمع ومكوناته.

المراجع:

Roger Bautier/ Habermas et le champs de la communication revue Cinemaction, Paris, éd. FSICS Colbet N°36, Mars, 1992, P89

Dominique Wolton/ Communication politique : Construction d'un modèle, revue Hermès, N°04 le Nouvel espace public, Paris éd. CNRS, 1989, P27.

* لأن فكرة ومفاهمية مفهوم الفضاء العمومي ارتبطت بشدة بالنظم السياسية وفلسفتها وأيديولوجيتها وعلاقتها مع أفراد المجتمع، في كيفية تسييرهم ونوعية تأثرهم ورجع الصدى اتجاهها (سياستها) واتجاه الحاكم le gouvernant أنظر في هذا الصدد كتاب: Jean Marie Cotteret/ Gouvernant et couvernés, France, ed presse universitaire, 1977.

♦ يعتبر المجتمع اليوناني سوسيولوجيا وحضاريا وثقافيا، مرجعا للعديد من الأبحاث الاجتماعية والمفاهيم والدراسات التي عرفت إزدهارا ونضوجا ابتداءا من القرن 18 في المجتمع الغربي.

Jûrgen Habrermas, trad. par Morc bid laury/ l'espace public archéologie de la publicité commune dimension constitutive de la société bourgeoise, Paris, éd Payot, **1978**, P**15**.

Ibid, P**16**.

Ibid, P**16**.

Ibid, P**9**.

Ibid, P**16**.

▽ حدد هابرماس فئة البرجوازيين في الموظفdن في الإدارة، رجال القانون، الأطباء، رجال الدين، الضباط، الأساتذة، الحرفيون، أصحاب المؤسسات الانتاجية والمحلاتمالكي وسائل الإعلام.

Nancy Fraser/ Repenser la sphère publique : une contribution à la critique de la démocratie telle qu'elle existe réellement, revue Hermès : l'opinion publique perspective Anglo - Soxonnes, Paris, éd CNRS, N° **31** décembre **2001**, P**129**.

Ibid, P **130**.

• مفهوم ديمقراطي ارتبط بنظرية العقد الاجتماعي التي صاغها الفيلسوف الفرنسي جون جاك روسو ويشير إلى رادة المجتمع السياسية التي تقف بوجه الحكم الفردي المطلق إذ يرى أن السيادة الحقيقية تعود للشعب عبر الإرادة العامة ولايحق لأحد التنازل عن هذه السيادة لصالح الحاكم. أنظر في ذلك عبد الوهاب الكيالي/ الموسوعة السياسية، ج 1، ط1، بيروت المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، ص120.

■ الشرعية السياسية: مفهوم سياسي محوري يتحدد به، صحة الحكم ووضعيته وقانونيته وتفسير وجوده، وهو يعبر عن القبول الطوعي والجماعي من أفراد الشعب للقوانين والقرارات والتشريعات التي النظام السياسي. أنظر في ذلك: نبيلة داود/ الموسوعة السياسية المعاصرة، القاهرة مكتبة غريب، بدون سنة ص61.

سورة قريش.

* السقاية هي سقاء الحجيج لقلة الماء بمكة. الرفادة عملية إخراج الصدقات.

** الملأ المكي مؤسسة سياسية ابتدعها قصي في هذا العهد، إذ قام بجمع بطون قريش مؤلفا من رؤسائهم مجلسا يعرف بالملأ المكي الذي كان ينظر في شؤون الكعبة وأمور التجارة وتجهيز القوافل ودخول الحروب وعقد الاتفاقيات. أنظر في ذلك جواد على: / المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج9، ط 2، بيروت، دار العلم للملايين، 1977، ص21.

أبو حسن علي بن محمد المارودي/ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، مراجعة الدكتور فهمي سرحاني، القاهرة، المكتبة التوفيقية، 1978، ص5.

[1] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون/ مقدمة ابن خلدون، اعتناء ودراسة أحمد الزعبي، بيروت، دار الأرقم بن أبي الأرقم 2001 ص222.

+ قراءنا الكتاب من خلال تناولنا لسلسلة التراث الفلسفي العربي، عن مركز الدراسات العربية، إذ جاء الكتاب تحت عنوان: ابن رشد/ مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، نقله من العبرية ؟إلى العربية أحمد شحلان، المشرف على المشروع، دعابر الجابري، ط2، سلسلة التراث الفلسفي العربي، مركز الدرسات العربية،2002.

[13] ابن رشد/ الضروري في السياسة، مختصر كتاب السياسة لأفلاطون، من سلسلة التراث الفلسفي العربي، بيروت،، مركز الدراسات العربية 2002، ص47.

Δ تعددت التوجهات والرؤى والمرجعيات في تعريف وتحديد معنى الحاكمية التي ترجع في الأصل إلى حاكمية الله في الأرض حسب المفكرين والفقهاء المسلمين. ومن جانبها السياسي يقصد بها النظم السياسية التي تحكم باسم الشرعية الإسلامية، أي تطبيق مبادئها وتنتهج الاستبداد السياسي في ممارساتها وتصرفاتها بالرغم من أنها نظم تبنت أفكار الفكر السياسي والتنظيمي الغربي ، فاستوردت منه ما يعرف بالديمقراطية، الحرية، الممارسة السياسية، البرلمان.